

النبي صلى الله عليه وسلم، والتلقي القرآني، آثاره ودلالاته من خلال سورة القيامة

The Prophet Mohammed PeacebeuponHim and the Quranic Reception : its Significance and its Effects through the sura of Ressurrection

د. بن نعيم عبد الغفار.
جامعة وهران I
bnnamia@yahoo.fr

ملخص

يعتبر موضوع التلقي القرآني من أهم المحطات الرسمية في تحديد كيفية أداء ألفاظ القرآن وتلقينها، درسها الباحثون من جوانب عقديّة واجتماعية ونفسية ودينية، بحيث يساهم في التأكيد على مصدرية القرآن الإلهية، وينفي تهمة البشرية عنه. فقد كان أصلا في النطق الصحيح بألفاظ القرآن وتواتر طرقه، لقد ساهمت قضية التلقي النبوي في توضيح قضايا مختلفة في التراث العربي كانت محل غموض عند الكثيرين، كما عملت على توطيد القاعدة الأصلية في وصول القرآن الكريم إلى الأجيال المسلمة، بل أشارت إلى مسائل متعلقة بطبيعة خلق الإنسان وتصرف المجتمعات.

من خلال هذا الموضوع نحاول الوقوف على مختلف هذه الجوانب مع التركيز على الدلالات المختلفة المتعلقة باللفظ القرآني، ومستدلين لذلك بآيات من سورة القيامة لما لها من دور بارز في توضيح الجوانب العقديّة للتلقي القرآني، وبيان دلالاته النفسية والاجتماعية والجمالية واللغوية أيضا.

الكلمات الدالة: التلقي، النبوة، القرآن الكريم، الإنسان، المجتمع.

Abstract

the Subject of the quran's réception is considered as one of the Most important stages in determining how the words of the qu'ran are pronanced and taught. The scholars studied it in terms of doctrinal. social psychological and reeligious aspects thus contributing to the emphasis on the devine origin of the qur'ans It was basically focused on the correct pronanciation of the quran's words and the frequency of its methods.

The issue of the prophetic reception had helped to clarify various issues in the arab heritagethat have been ambiguous among many it has also strengthened the original basis of the holy qur'an arriving muslim generations but referred the issues related to the nature of human-being creation and the socities . By hereberry we try to stand on these different aspects with a focus on the various semantics related to the quran's Significances improving that by the verse exported from elkiama Quranic Surah because of its prominent role in clarifying the doctrinal aspects of the qur'anic reception and indicating its psychological social aesthetic and languages as well.

Keywords: Reception, Prophecy, holy qur'an, human-being, Society.

تربوية وتعليمية في عملية التلقي، وهي الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل.

ستكون هذه المرحلة المحصورة في ثلاثة وعشرين سنة مرحلة حاسمة ومادة علمية ثرية للعديد من الدراسات والأبحاث القرآنية، جانب منها الكثير الصواب. حين اعتبرت آيات الذكر الحكيم لا تعدو عن الأخبار والأساطير، ولم تستغ مبركات التلقي النبوي، ولم تفقه قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾⁽¹⁾، ذلك أن التأصيل لمثل هذه القضايا لا يتحقق إلا بالعودة إلى العصر النبوي وعصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم، الذين جعلوا هذه المرحلة من السنوات فترة مراقبة لخطوات النبوة في كل شيء، بدءاً من حركة اللسان في الحفظ النبوي، حتى روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "فَأَنَا أَحْرَكُهُمَا لَكَ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْرَكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أَحْرَكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحْرَكُهُمَا فَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ"⁽²⁾، هذه المراقبة الشديدة والمركزة أصلت لفكرة محورية في مسائل التلقي مفادها أن القرآن الكريم لا تكفي فيه الكتابة، ما لم يتعضد بالحفظ والسماع، حتى اشتهر في المصنفات قولهم: "لا تحملوا العلم عن صحفي ولا تأخذوا القرآن عن مصحف"⁽³⁾، في إشارة دقيقة إلى أهمية التلقي الذي دلل عليه القرآن الكريم حين قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلَقَّى لِقْرَاءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾⁽⁴⁾، وزيادة على هذا فقد وردت أحاديث نبوية شريفة دالة على مواطن الإتيان في التلقي منها⁽⁵⁾ قوله صلى الله عليه وسلم: "اسْتَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ، وَأَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ"⁽⁶⁾، وعن عبد الله بن مسعود قال: "بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَارٍ، إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: وَالْمُرْسَلَاتُ فَتَلَقَّنَانَهَا مِنْ فِيهِ، وَإِنَّ فَاهُ لَرَطْبٌ بِهَا..."⁽⁷⁾، لا يدل كل هذا إلا على "الهيئة التوقيفية المخصوصة لقراءة القرآن الكريم"⁽⁸⁾.

ازدادت الرعاية الإلهية للتلقي النبوي حين انعكست على "نزاع الصحابة في لفظ القرآن"⁽⁹⁾ ولم تكن لهم أداة تصويبية ولا تصحيحية إلا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثبت اختلاف الصحابة في القراءة وتصويب النبي عليه الصلاة والسلام لكلا القراءتين، فيما ثبت وتواتر عنه، هذا التواتر القرآني، الذي جعل عملية نقل القرآن في أعلى درجات التوثيق ووفق أقوى وسائل النقل قطعية"⁽¹⁰⁾، سواء من حيث نطق اللفظ أو رسمه وكتابته، وهي أركان ضابطة في التلقي، وحين نقرأ لبعض المستشرقين قولهم: "بذلنا جهوداً كبيرة خلال ثلاثة أجيال في تتبع مخطوطات القرآن الكريم من أقدم ما هو محفوظ في دور الآثار والمكتبات العالمية، حتى الأوراق المفردة المقطوعة من مصاحف قديمة فقدت، وقارنا كل ذلك بالمصاحف المطبوعة، لكي نحصل على أي اختلاف بين المصاحف من مصحف عثمان إلى يومنا، ولو كان اختلافاً في آية أو جملة أو كلمة، فلم نجد أي اختلاف، مما جعلنا نعتقد مستيقنين أن القرآن الذي نطق به محمد باق إلى اليوم كما نطق به لم يتبدل فيه شيء"⁽¹¹⁾. حين نقرأ هذا. سنعلم ثم نطمئن عقولنا

عرف موضوع تلقي القرآن الكريم على عهد النبوة أساساً هاماً في قضية المصدرية، حيث كانت المرحلة الأولى والأصيلة في قطعية نصوص القرآن من جهة الثبوت، كما كانت محور رعى في الدراسات والأبحاث العلمية على اختلاف مشاربها الإسلامية منها أو الحداثية أو العلمانية، وكل منها يتناولها بالبحث والدراسة على حسب الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه.

لقد بات موضوع التلقي القرآني متصلاً بمختلف جوانب الحياة كونه يرتبط بدستور الأمة، إذ يمنع التحقيق والتثبت في مسائله وتصحيح ما علق بالعقول من تزييف لحقائقه وضوابطه كل مسالك الطعن في شخصية المتلقي الأول وهو النبي صلى الله عليه وسلم، أو الملقى الواسطة وهو جبريل عليه السلام، أو الكلام الملقى وهو القرآن الكريم، فتتبع أدق مراحل لا يوقف على تقيصة تذكر، بل يترك في ذاكرة المتبع أدق تفاصيل الأمانة التي كلف بها الرسولان معاً، إذ لهما مهمة التبليغ والأداء لا مهمة الوضع والإنشاء.

لقد جاء في آيات الذكر الحكيم. العديد من الآيات التي تبين هذه المعاني، وعمل أهل التفسير على توجيه معانيها على وفق ما يصد المطاعن، ويمنع تزلزل العقائد. وفي هذا الإطار جاءت هذه المداخل لتتناول واحدة من هذه الآيات التي كانت مدخلا عميقاً في تأسيس الذاكرة الجماعية للأمة في قضية تلقي القرآن الكريم، وهي آيات أربع من سورة القيامة، وتحاول الوقوف على مختلف دلالاتها المتناثرة بين مصنفات التراث الإسلامي، إذ كانت دليلاً مميزاً في الكشف عن عمق علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم باعتباره الكلام المنزل، وعلاقته بجبريل عليه السلام باعتباره واسطة التنزيل، وعلاقته بالله تعالى الذي أنزل القرآن الكريم.

الآثار التربوية والتعليمية للتلقي النبوي

آثر الموضوع الحديث عن هذه النقطة لأهميتها، ولتجاوز المفاهيم الاصطلاحية المعهودة والمشهورة، إذ تحديد هذه الآثار من البداية سيُقدم الموضوع على أنه نتيجة معادلات حتمية لا يفرضها الواقع النبوي في الإقراء فحسب، بل البراعة في الأداء، والتدقيق في التبليغ، والحرص على التشريع، إذ لا مجال فيها للمزيادات، فحياة النبوة كانت أرضية خصبة للتعليم والتعلم. لا تزال الدراسات والأبحاث تنتج دروسها، وتصوغها على أنها أساسيات النجاح الروحي والنفسي والاجتماعي والفكري. بل السياسي والاقتصادي أيضاً.

إن القيام بعملية حسابية سريعة لمختلف الأجيال السابقة والقادمة، سيجد أن مصيرها مرهون بثلاث وعشرين سنة فقط، من حيث الأحكام والشرائع التي أقرها القرآن الكريم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره أول حافظ شارح مبين لكتاب الله فقد أولى في حياته مساحة واسعة وعميقة لتأصيل أحكام التعامل مع القرآن الكريم، كانت وبحق بمثابة آثار

توضيح السابق عن طريق توصيف نموذج من القرآن ممثلاً في آيات سورة القيامة لعلاقتها المباشرة بالموضوع.

توجيه آيات سورة القيامة

قال تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِلسَانِكَ لِتَجْعَلَ بِهِ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ١٧ فَإِذَا قَرَأَهُ فَتَجْعَلْ قُرْآنَهُ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ﴾

أجمعت التفاسير على أن المعنى العام للآية ثابت من جهة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حفظ القرآن الكريم، مخافة أن ينفلت منه فكان يسارع حفظه وتلقيه، مع ما كان يجد في ذلك من الشدة والصعوبة، وتشير كتب الحديث، انطلاقاً من تفسير آية القيامة إلى هذا الجانب، وهي برواياتها المختلصة عن ابن عباس تؤدي دوراً واحداً، فعند البخاري: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نَزَلَ جَبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحْرِكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ، فَيَسْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يُعْرِفُ مِنْهُ"⁽²³⁾، وفي مسند أحمد: ﴿لَا تَحْرُكْ بِلسَانِكَ لِتَجْعَلَ بِهِ﴾ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفثيه⁽²⁴⁾، وفي المعجم الكبير للطبراني: "إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ تَلَقَّاهُ بِلسَانِهِ، وَشَفَتَيْهِ كَانَ يُعَالِجُ مِنْ ذَلِكَ شِدَّةً"⁽²⁵⁾، فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان تكفل الله تعالى بتحفيظه وتلقيه وبيانه له، وتجتمع مع هذا المعنى العديد من الدلالات التي ترتبط وثيقاً بحياة الفرد في المجتمعات الإسلامية، تحرص هذه المداخل على بيان بعضها على وفق الثابت والمقرر، ومن بين هذه الدلالات:

- التنبيه إلى جبلة العجلة في أصل الخلق

سيكون النهي عن العجلة في الأمور رغم كونها أصلاً في جبلة الخلق تبعاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ وقوله تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)..... إلخ، . سيكون . أمراً سريع الظهور في دلالات الآية، وربما يبعد القول بالقلم في هذا الصدد إلى محاولة الربط بين آيات سورة القيامة، والآيات الدالة على مسائل ودلالات العجلة لتأكيد تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم البشرية، وأن معالجته التنزيل قد امتزجت فيه طبيعته النبوية بالبشرية، فلحظة تلقيه الوحي كان بطبيعته النبوية، ولحظة مسارعة الحفظ بتحريك لسانه كان بطبيعته البشرية⁽²⁶⁾ جاء نهي الله تعالى تبعاً لهذه الطبيعة العجلية التي يشترك فيها جميع الناس، وهو المعنى الذي أشار إليه الزمخشري في كشافه، حيث اعتبر قوله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢١﴾⁽²⁷⁾ في ذات السورة وتبعاً لسياق الآيات إشارة إلى الجانب البشري في مسارعة صلى الله عليه وسلم للحفظ، فقال في تفسيره: "كَلَّا: رَدَع لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَادَةِ الْعَجَلَةِ وَإِنْكَارَ لَهَا عَلَيْهِ، وَحَثَّ عَلَى الْأُنَاةِ وَالنُّوْدَةِ، وَقَدْ بَالِغٌ فِي ذَلِكَ بِإِتْبَاعِهِ قَوْلَهُ: "بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ" كَأَنَّهُ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَا بَنِي آدَمَ لِأَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ مِنْ عَجَلٍ وَطَبِيعْتُمْ عَلَيْهِ تَعَجَّلُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ ثَمَّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ"⁽²⁸⁾

أن الدراسات والأبحاث الطاعنة ستكون بين خندقين ضيقين أحدهما إلهاء نفس، وثانيهما الوصول إلى نتيجة خاطئة، غير صامدة أمام هذه الحقائق.

لقد كانت القراءة النبوية منهاجاً قائماً في التوجيه والتعليم القرآني، بداية من كيفية نزول الآيات وصولاً إلى طريقة تلقيها وأدائها، مروراً بجميع الظروف الزمنية والمكانية المحيطة بالقرآن الكريم، كزمن النزول، ومدته، وأسبابه، ومكانه، وشهره، ويومه، وليلته، وكثرته، وقلته، ومكيه، ومدنيه، وأوله، وآخره..... إلخ.

إن آيات سورة القيامة على خصوصية خطابها، وتعلقه بشخص النبي عليه الصلاة والسلام في مسمى الأمر بالقراءة، إلا أن الناحية التعليمية والتربوية التي اشتملت عليها هذه الآيات جعلتها ملزمة التطبيق لكل قارئ وحافظ بدءاً بجيل الصحابة عليهم الرضوان، فكما حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تطبيق مدلول الآيات ألزم أصحابه بما ألزم به نفسه، إذ علمهم كيف تلقى القرآن، وعلمهم كيف يتلقون القرآن، وقدروي عن أم سلمة رضي الله عنها قولها: "كَانَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُنِي عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"⁽¹²⁾، وهذا يقتضي عدلاً: تلقين الحروف تلقيناً بطيئاً كهيئة الملمي، وكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى من جبريل الحرف بعد الحرف، كذلك كان الصحابة يتلقون منه صلى الله عليه وسلم. والحكمة الواضحة من هذا كله متابعة التعلم على هيئة متدرجة تمكّن أكبر قدر منهم على حفظ ما ينزل من القرآن"⁽¹³⁾

وعليه فإن وصل الحاضر والمستقبل بالماضي الإقرائي إنما مرده إلى المرحلة النبوية الخالصة، التي ضبطت هيئة التلاوة القرآنية، وهذا بموجب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽¹⁴⁾، وكان من وصايا النبوة قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المروي عن زيد بن ثابت: "نَضَرَ اللَّهُ امراً سَمِعَ مَنْأً حَدِيثاً فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَفَقِهَ لَيْسَ بِفَقِيهِ"⁽¹⁵⁾، فهذه من أسامي القواعد والضوابط التي علمها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، في قضايا الدين عموماً، وفي مسائل أداء اللفظ القرآني وتلقيه خصوصاً فهو أساس الشرائع والأحكام، قال صاحب إذهاب الحزن: "ولا شك أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (حديثاً) يتسع ليشتمل القرآن أو لا، أو ليدخل من باب قياس الأولى كما قال الله عز وجل: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾"⁽¹⁶⁾، فسمى الله تعالى القرآن حديثاً"⁽¹⁷⁾.

فلا تستقيم القراءة إذا ولا التلقي بغير التعليم النبوي، المنضبط بمثل رواية الإمام علي رضي الله عنه حين قال: "...إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَقْرُوا كَمَا عَلَّمْتُمْ"⁽¹⁸⁾، هذا التعليم الذي نشأ في نفسية النبي عليه الصلاة والسلام من خلال إدراكه العميق لمدلول الآيات القرآنية الموجهة لقضايا الإقراء والتلقي، كآيات سورة القيامة⁽¹⁹⁾، والنجم⁽²⁰⁾، والحجر⁽²¹⁾، والنمل⁽²²⁾... وغيرها من الآيات، وبمكنا في ما يلي

صلى الله للحفظ، في بادئ الأمر، كما لا يتوافق مع مدلول آيات سورة القيامة، والتي دلت وضوحاً على التكفل الإلهي. ومع ذلك فإنّ آتمّ الدلالات تكتمل بمعرفة مراحل حفظ النبي صلى الله عليه وسلم والتي تبدأ بإقراء جبريل ثم سماع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وصول معاني القرآن إلى قلبه⁽⁴⁴⁾.

وعليه، تتضح أهمية السماع في عملية الحفظ، رغم العناية والتكفل الإلهي، وهذه الأهمية ستكون في ما بعد أصلاً واضحاً بالنسبة لحفظ الناس، من جهتين اثنتين: إما للمؤمن الذي يسعى لحفظ الآيات كما في حديث أبي عبد الرحمان السلمي السالف: حدثنا من كان يقرئنا القرآن ولا يكون إلا بالسمع، أو للكافر المرجو إيمانه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْمُونَ﴾ وكل هذه المعاني ستكون حتما مانعة من اتهام النبي صلى الله عليه وسلم، بالكهانة أو بالسحر أو بالشعر أو غيرها، فسماع القرآن لأي الجهتين سيكون مدخلاً عميقاً للإيمان بالنبوة، إذ يدفع العقل السليم إلى اكتشاف إعجازه، على خلاف الكتب السماوية الأخرى التي لا تحمل هذا المعنى بمجرد كونها من عند الله تعالى، وعليه، فإنّ معرفة دليل صدق الوحي ودليل صدق النبوة كامنان في سماع القرآن ذاته رأساً وأصلاً، أما إلزام الحجة وإثبات المعجزات فعلى سبيل الاستئناس إذ اشترك فيها جميع الأنبياء، الذين لم يثبت القول عن كتبهم مسمى الإعجاز، فسماع القرآن يحمل في ذاته دليلاً قاطعاً على أنه كلام رب العالمين، وهو الدليل القاطع على صدق النبوة⁽⁴⁵⁾.

من جهة أخرى، فقد اجتهدت بعض الدراسات العقديّة في اعتبار آيات سورة القيامة أصلاً من أصول رد القول بخلق القرآن، وركزوا في ذلك على معنى قول القائل: "لفظي بالقرآن مخلوق"، إذ يستقيم الإطلاق من جهة "فعل اللفظ، وحركته، وصوته، وهو حق، ولا يستقيم من جهة المفظوظ الذي هو كلام الله المؤلّف من الحروف المبنطوقة المسموعة المفهومة، وهو باطل"⁽⁴⁶⁾، فقوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِلِسَانِكَ لَتَعْجَلَ بِ﴾ تدل على أنّ التلاوة التي هي فعل العبد بلسانه المخلوق، ودليلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾⁽⁴⁷⁾، أي بلسانك، وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قِرَاءَتَهُ﴾⁽⁴⁸⁾ وقوله: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْ نَقْرَأَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى لِسَانِ عَلَى كُتُبٍ وَنُنزِّلُهُ نَتْرِبًا﴾⁽⁴⁹⁾ وقوله: ﴿يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَةٍ﴾⁽⁵⁰⁾.

وعليه فإنّ الحواس والجوارح التي تتعامل مع القرآن الكريم من لسان وصدر وشفيتين وأذنين كلها مخلوقة، أما القرآن الكريم فهو كلام الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه.

سيكون من المفيد التنبيه إلى: أنّ الآية تستجيب في عمقها إلى ربط مميز بينها وبين الآيات الدالّة على ذكر الله تعالى، فالظاهر أنّ معناها القائم يتوافق مع واحد من طبقات الذكر الأربع⁽⁵¹⁾ وهو ذكر اللسان، فذكر الله تعالى باللسان يحوز على المعنى المطلوب فيه، وهو أقرب إلى الانشغال عنه منه إلى الاشتغال به، ويبرّر هذا الطرح ما روي في الحديث القدسي

إنّ نظراً سريعاً يقظاً لهذا التنبيه، سيكشف أنّ هذه الآيات كانت موجّهة للنبي صلى الله عليه وسلم في ذاتها، تحت مسمى الرعاية الإلهية في قراءة الألفاظ وفي أدائها على النحو الذي أراه الله تعالى، لكنها مع هذا الاختصاص، تدل أيضاً على توجيه الناس في طريقة قراءة القرآن الكريم، تحت مسمى النبي القدوة في كل شيء، ووفقاً لمقوم حفظ الآية أولاً ثم فهمها والعمل بها ثانياً، تماماً كما عمل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي عبد الرحمان السلمي قال: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرَأُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُمْ كَانُوا "يَقْتَرُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ"، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْآخَرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ⁽²⁹⁾ وهو واحد من الآثار التربوية في قراءة وتلقي القرآن الكريم.

يحرص السياق القرآني على تأكيد المعنى في العجلة من خلال قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾⁽³⁰⁾. فقد أشارت بعض مصنفات⁽³¹⁾ التفسير أنّ هذا المعنى جاء تأكيداً لما ورد في سورة القيامة، كما أشار بعضها الآخر إلى معنى فريد ومميز، حين تشير أنّ العجلة لا تدفع إلى انفلات القرآن فحسب، بل تمنع الوقوف على بيانه أيضاً، قال الطبري في تفسير الآية: "ولا تعجل يا محمد بالقرآن، فتقرئه أصحابك، أو تقرئه عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه من كان يكتبه ذلك من قبل أن يبين له معانيه"⁽³²⁾.

تشير مصنفات⁽³³⁾ اللغة والمعجم إلى معنى رشيد وسديد في مدلول الألفاظ والفروق بينها، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾⁽³⁴⁾، وقوله: ﴿لَتَعْجَلَ بِ﴾⁽³⁵⁾ في الخصوص، أو قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾⁽³⁶⁾ وقوله ﴿خَلَقَ لِنَاسٍ مِنْ عَجَلٍ﴾⁽³⁷⁾ وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾⁽³⁸⁾ في العموم، ولم يقل: "ولا تسارع، أو لتسارع به، أو وكان الإنسان سريعاً، أو خلق الإنسان من سرعة أو غيرها من مشتقات اللفظ، إنما يدل على أن مصطلح العجلة مقصود لذاته، وأن الفرق بين السرعة والعجلة يكمن في أنّ العجلة التقدم بالشيء قبل وقته - وهو مذموم وهذه الآيات شاهد دليل، والسرعة: تقديم الشيء في أقرب أوقاته - وهو محمود - ويشهد لها قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾⁽³⁹⁾، ويستثنى من عموم لفظ العجلة ما جاء على سبيل الأناة كقوله تعالى: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾⁽⁴⁰⁾.

- الدلالات العقديّة للآيات

يمكن تحديد هذه الدلالات من جهة محاولة التوفيق بين مدلول الآيات، وبين تنزيل القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فالظاهر من ظاهر قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾⁽⁴¹⁾ وقوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۚ ۱۹۳ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)⁽⁴²⁾ أنّ جبريل عليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي صلى الله عليه وسلم من غير سماع قراءة⁽⁴³⁾، لكن هذا المعنى لا يستقيم مع الثابت في مسارعه

لتنبهه إلى اعتزال الأساليب الخاصة في الحفظ، حتى لا تُورد له العجلة النسيان، وأن ذلك مكفول من عند الله تعالى ابتداء من الحفظ إلى الجمع إلى البيان، وهذا كان مسلماً واضحاً في الدراسات وأبحاث الدراسات القرآنية، للحديث عن نسيان النبي صلى الله عليه وسلم من عدمه، فكما ضمن له الله تعالى الحفظ والإتقان والبيان، فقد ضمن له أيضاً عدم نسيانه، وقد قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ۖ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾⁽⁵⁹⁾، قال الطبري: والقول الذي هو أولى بالصواب عندي، قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن ننسيك بنسخه ورفع⁽⁶⁰⁾، وللآية وجه فهم آخر، فقد يؤول المعنى: إما سنقرئك فلا تنسى أننا نحن من أقرأناك، وعليه فحفظك مضمون ومصون، أو سنقرئك فلن تنسى ما أقرأناك، وكلاهما مرهون بتوفيق الله تعالى وحكمه.

وفي الآية ملمح لطيف في عود الضمير في قوله: "علينا، جمعه، قرآنه، بيانه" فسواءً عادت إلى الله تعالى، أم إلى جبريل، فهي نائية بشخص النبي صلى الله عليه وسلم عن التدخل في ألفاظ القرآن الكريم، أو في معانيه، وهي دلالة قائمة بذاتها في الحفظ والتكفل الإلهي بهذا الخطاب، فإن عادت إلى الله تعالى فذاك، وإن عادت إلى جبريل فيما كلف به من التبليغ عن ربه، وفي البحر المحيط ما يسدّد هذا حين قال: "فاذا قرأناه: أي الملك المبلغ عنا"⁽⁶¹⁾ وقال الرازي: "جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته، وهذا يدل على الشرف العظيم لجبريل عليه السلام"⁽⁶²⁾، ولا فرق في هذا المنحى بين جبريل عليه السلام، والنبي صلى الله عليه وسلم من جهة شرف التبليغ عن الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾⁽⁶³⁾

اللفظ والمعنى في آيات سورة القيامة

تحمل الآيات، التزاماً واضحاً بالترتيب الطبيعي للجمل والتراكيب، فرعاية اللفظ مقدم على رعاية المعنى، وهذا ما يفيد حرفة "ثم" البعدية، في قوله: ثم إننا علينا بيانه، وهذا الدليل كان سندا للقائلين أنه صلى الله عليه وسلم بين كل معاني القرآن الكريم، إضافة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾⁽⁶⁴⁾ والجمع بين الآيتين يبين أن آية القيامة تقتضي بيان الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، وهذه الآية تقتضي تبليغ الناس به. وعليه فإن الخطاب القرآني راعى الحواس والجوارح في تلقيه، كما راعى اللفظ والمعنى معاً، ذلك "أن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب، وهو ومتعلق بهما، فسماع لفظه حظ للأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ للقلب"⁽⁶⁵⁾

- دلالات القراءة والإقراء في الآيات

إن نظراً متمعناً في آيات السورة، ثم مقارنتها بما جاء في حديث المعالجة، كما كان أصلاً في تلقي النبي صلى الله عليه وسلم، سيكون منهجاً عريضاً في خطوات الإقراء، وضرورياته وأصوله، ويتضح هذا من خلال التأكيد على:

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفاته"⁽⁵²⁾، فظاهر بل واضح أن تحريك اللسان مطلوب لذاته في بعض المواطن.

في صدد الربط بين مدلول الآيات والجانب العقدي، سيكون من تمام القول، إن هذه الطريقة في التعامل مع القرآن الكريم من جهة التلقي أولاً، والأداء ثانياً، والتي قدمتها آيات سورة القيامة، لم تكن على سبيل التعليم فحسب، بل الإتقان والامتحان أيضاً، إذ ستكون اختباراً حقيقياً في الدنيا، ويؤيد هذا الطرح ما نقرأه في فضائل القرآن لابن كثير⁽⁵³⁾ حين جعل معنى استحباب ترتيب القراءة والترسل والتفكر والتأمل المبتوث في ثناياها، مطلوباً على وجه الوجوب في مرحلة أخرى من التنزيل، حين قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾⁽⁵⁴⁾، ومطوية لجزء القارئ في الآخرة تبعاً للحديث المروي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُقَالُ لصاحب القرآن: اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها"⁽⁵⁵⁾، فبحسب القراءة في الدنيا ستكون القراءة في الآخرة.

- دلالة الآيات في معاناة النبي صلى الله عليه وسلم في تلقي القرآن الكريم

تكشف آيات سورة القيامة وسورة طه، جانباً آخر يمكن الاعتماد عليه بقوة في طريقة تلقي القرآن الكريم، إذ التلقي النبوي مرتبط بلقاء الحرف وسماع الصوت، ولا علاقة للقرآن الكريم بمدلول الإلهام الفطري الذي يتباحثه الدراسون في مدلول الوحي اللغوي، بل يتخذ مفهوم الحركة والصوت المقطع هجائياً، والمتتابع حرفاً حرفاً، دلالة على التريث والتلقي المتمعن، ولعل الحديث المروي عن محمد بن كعب القرظي، يُبين أن النبي صلى الله عليه وسلم كما أخذ القرآن الكريم حرفاً حرفاً، فقد كان يقرأه كذلك أيضاً، حيث قال: «كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرْفًا حَرْفًا»، وسُئِلَ هَذِهِ الصُّورَةَ الصُّوْتِيَّةَ فِي الْأَدَاءِ فِي فَهْمِ طَرِيقَةِ اكْتِشَافِ الصَّحَابَةِ "لِلتَّأثيرِ الْقُرْآنِيِّ، وَلِحَقِيقَةِ النُّظْمِ وَالْأَسْلُوبِ الْأَدَاءِ عَنِ طَرِيقِ السَّمْعِ"⁽⁵⁶⁾ يمكن من جهة أخرى، الوقوف على ما تحمله آيات سورة القيامة من دلالات المعاناة في التلقي النبوي، فحين تجتمع الطبيعة البشرية، مع المطلوب الإلهي، سنكون أمام ذاكرة عربية خالصة مستعدة لحفظ كل وارد⁽⁵⁷⁾، وعليه، فهذا الجانب مضمون لا غبار عليه، مما يدفع للإعلان عن أسباب المعاناة وجمعها في:

01. "علم النبي عليه الصلاة والسلام، أنه كلف في حدود ما تُطيقه قواه، وهذه الطاقة مرهونة بمقدار مراقبة العبد لربه، ولأنه النبي المختار، فقد أودع الله تعالى فيه صفات النبوة، وما يتبعها من الخصائص المعينة على تحمل أعباء الرسالت.

02. خوفه من التقصير في تبليغ المنزل عليه، ولا علم له مسبق عن حجمه ومقداره"⁽⁵⁸⁾ هذان السببان كانا كافيان

الْخَوْفِ وَسُرْعَةِ الْقِرَاءَةِ فَيُقَالُ لَهُ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَجْعَلَ بِهِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا بِحُكْمِ الْوَعْدِ أَوْ بِحُكْمِ الْحِكْمَةِ أَنْ نَجْمَعَ أَعْمَالَكُمْ عَلَيْكُمْ وَأَنْ نَقْرَأَهَا عَلَيْكُمْ فَإِذَا قُرَأْنَا عَلَيْكُمْ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ بِالْإِقْرَارِ بِأَنَّكَ فَعَلْتَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَ أَمْرِهِ وَشَرْحَ مَرَاتِبِ عَقُوبَتِهِ⁽⁷³⁾

وإذا علم أن الخطاب القرآني قائم على مستويات عالية، من الترابط والتناسق بين سوره وآياته، وأن كل آية لها مكانها ومحلها في السورة، فلها أيضا معناها الذي يتناسب مع المعنى العام للسورة، علم أن هذا المنحى في فهم الآية غير مندفع عقلا، وهذا ما ختم به القفال رأيه قائلا: "فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به"⁽⁷⁴⁾.

إنّ تحصيل وجه التناسق العام بين هذه الآيات، والتي قبلها وما بعدها، سيُقدم جانباً من الترابط في مدلول العجلة المنوعة في مسائل الدنيا والآخرة، على حد سواء، فالسورة بكاملها على حرص شديد في التنبيه، ووجه فريد في تصوير الاهتمام الإلهي بشخص النبي صلى الله عليه وسلم.

إنّ الحديث عن التلقى القرآني في العهد النبوي، لهو البذرة الأساسية في توصيل الفهم الصحيح، ومانع من القصور العقلي أن يصل إلى الطعن في المصدرية القرآنية، والحق أن كل آية في كتاب الله تعالى، بشغلها مكاناً في حيز السورة تمثل دلالة قاطعة لوحدها على هذه المصدرية، ثم أن اختيارها دون غيرها لدليل على قصدها بذاتها، فإن الكتاب الذي خوطب به الناس أجمعين، وجمع الملل والنحل على مدار السنين، لا ينفك يجعل لكل لفظ وحرف فيه: قيمة لفظية، ومعنوية، فاختيار اللفظ والمعنى، هما الدالان على مقصود الشارع الحكيم.

إنّ نظراً دقيقاً في آيات سورة القيامة، سيكشف سريعاً أنّ معالجة التنزيل كان لشدة فيه، من جهة لفظه ومعناه، وهو على تساير مع ثقل هذه الرسائل، والتي ترجم ثقلها قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَشَعًا مُّصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾⁽⁷⁵⁾، والآية على إشارة وثيقة لتهاون الناس في استخلاص وجه المسؤولية المنوطة بهم، وعلى تشريف عال للنبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً له، وهو الذي بلغ هذه الرسائل على ثقلها وأدى الأمانة على أكمل وجهها.

وبالتالي فإذا استبان للناس حجم معاناة النبي عليه الصلاة والسلام في استقبال الوحي، ثم وعيه، وفهمه، ثم تبليغه، فلا يحق لهم ألا يلقوا لذلك بالاً أو اهتماماً، وقد كان كيفيه تعبا ما يصاحبه من أمارات ثقل الجسم، وصلصلة الجرس، وأزيز النحل، وتصيب العرق في اليوم الشديد البرد، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ لَوْلَا قِيلَ﴾⁽⁷⁶⁾، في "محملة والعمل بحدوده وفرائضه"⁽⁷⁷⁾.

لقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حجم معاناته في تلقي الوحي، واستقبال ألفاظ القرآن الكريم، حين سُئل عن طريقة الوحي فقال: "أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده

01. أن الآيات ومعها الحديث لم تترك للقراءة النفسية مكاناً ليحتج على إمكانها"⁽⁶⁶⁾، فمنطوق قوله تعالى " لا تحرك به لسانك" تبين إرادة التحريك في ذاته، والأمر على خلاف ذلك حال استكمال السياق الذي يبين أن مسألة الامتناع عن تحريك الفم متعلقة باستعمال الحفظ، وإلا فإن معنى القراءة والتلاوة لا يتحقق إلى بتحريك الفم والشفيتين، وهما من أصول مخارج الإقراء، وقد أكد السياق على هذا الطرح حين قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾⁽⁶⁷⁾، وعلى هذا الأساس، كان لمجالس الإقراء أحكام لم يبين الصواب فيها من الخطأ دون النطق والسماع، كما ينبئ السياق إلى مخارج الحروف، والتي تظهر جمعا في اللسان والشفيتين، وهما "الظاهران للبيان على خلاف الجوف والحلق والخيشوم"⁽⁶⁸⁾

02 - الشدة في قراءة وحفظ القرآن الكريم

أما مسألة الشدة في القراءة، فقد قاربت أن تقاس على الاجتهاد من جهة الأجر، وفي الحديث النبوي الشريف، ما يدل على ذلك من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَفْرَأُ يَتَتَعَّعَ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ، لَهُ أَجْرَانِ اثْنَانِ"⁽⁶⁹⁾

أما الشدة في الحفظ، فمن جهة ضرورة تكراره والتريث فيه، فإذا كانت المسألة مستعصية على النبي صلى الله عليه وسلم بطبيعته البشرية فمن دونه من الناس أولى. "والمقتضى المنهجي لهذه الشدة: إعطاء قراءة القرآن، وحفظه، وتلاوته، ومراجعته، حجمها الحقيقي دون هضم، أو تقليل من حجمها، إذ معظم الحالات الواقعة في حياة حفاظ القرآن فضلاً عن بقية أمة القرآن التهوين من ذلك إما تكاسلاً، أو تهاوناً، أو هروباً من الإغراق في مفهوم البركة، فيقلل البعض من العزيمة في معالجة الوحي القرآني قراءة، أو حفظاً، أو مراجعة، لئلا يهول مفهوم البركة على مفهوم بذل الأسباب"⁽⁷⁰⁾

في لفتة قريبة من هذه الدلالات، ينقدح في الذهن سريعاً أنّ خطاب الآية خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، لكنه يشمل الإنسان المؤمن بالوحي والرسالة، وهو مخاطب به باعتبار عالمية الخطاب، لا باعتبار خصوصيته، فالمؤمن مطالب تماماً كما طوبى النبي صلى الله عليه وسلم ب: الحفظ، والقراءة، والتريث، والتأني، وتوكلاً على الله تعالى لا اتكالا عليه، إذ يضمن الأول التوفيق، ويورد الثاني إسناد الأمر إلى الله تعالى، فالتواكل على حسب معاجم اللغة اعتماد البعض على البعض⁽⁷¹⁾، وهذا لم يتحقق إلا للنبي صلى الله عليه وسلم.

قريباً من هذا الفهم، أورد الرازي في تفسيره عدة احتمالات لتفسير آيات سورة القيامة، وذكر وجهاً سادساً ذكره القفال أن الآية لم تكن خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، بل للإنسان المذكور في الآية آنفاً في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾⁽⁷²⁾، فكان ذلك للإنسان حال ما يُنبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يُعرض عليه كتابه فيقال له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة

هو جبريل عليه السلام، أي علمه ما أنزله الله تعالى عليه⁽⁸¹⁾، فالصورة الجمالية قائمة ابتداءً في اتصال رسول السماء برسول الأرض، حتى قرّر الزركشي في برهانه أن للتلقي طريقان: "أحدهما انسلاخ النبي عليه الصلاة والسلام من البشرية إلى الملكية، وأخذه من جبريل، والثاني أن الملك جبريل انخلع من الملكية إلى البشرية حتى يأخذ الرسول منه"⁽⁸²⁾، فهذا الاتصال لا شك كونه رابطة روحية ونفسية وجمالية، تظهر فنيته في كل لقاء حسب الزمان والمكان والسبب، خاصة إذا علمنا أن لكلاهما صفات خلقية وخلقية لا توصف بغير الجمال، وقد عبّر صاحب المناهل بما يُفيد هذا المعنى قائلاً: "فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول، اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك، لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك. وعند تسلط الملك على الرسول، ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغيير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، ويطلع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتاباً"⁽⁸³⁾

كثيرة هي الآيات القرآنية، التي تؤكد على أن القرآن الكريم بمعزل تام عن التدخل النبوي، أو حتى الملائكي، وهي الخيط الرفيعة التي شدّت عقول العرب إلى الإيمان، فكما يعرفون كلامهم، يعرفون أيضاً أن ما يسمعون ليس من كلامهم، ولا هو من كلام الجن، ولا الشعر، ولا السحر، ولا الجنون، ولا الصرع، ولا الكهانة، ولا ما ادّعوه سلفاً، ونعتقد بحق أن المرحلة العربية الإسلامية الأولى، والتي مثلها العصر النبوي، قد قدمت أعلى مستويات الفن والجمال في الصورة القائمة بين النص القرآني وبين قبول البعض ورفض البعض الآخر، فاللحظات التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى فيها القرآن على مدار ثلاث وعشرين سنة، كانت أكثر اللحظات انتظاراً لدى الفريقين معاً، ينتظر منها المسلمون الأوامر والنواهي، وينتظر منها الراضون أن يسمعه فحسب، وقد ثبت أن ساداتهم كانوا يختلسون السماع في مواطن كثيرة، حيث تجتمع لمسامعهم عناصر الجمال، سواء في الألفاظ التي اختارها القرآن الكريم، ونوع بين الشديدي منها واللين، أو في المعاني التي تتنوع وتنتقل بين الآيات القرآنية، والأفكار التي ينتجها النص القرآني، من ضرب الأمثال، وسباق الآيات التي تسير المدركات العقلية العامة، والتي تحتاج إلى أعمال الفكر والتأمل، وغيرها من العناصر الفنية التي تلتف بمجموعها إلى تحقيق هدف واحد، هو عبادة الله تعالى وحده.

بهذا المستوى الجمالي إذا، ظهر التلقي النبوي للقرآن الكريم، يراقبه المسلمون والمعارضون على حد سواء، اجتمعت له كل الظروف، التي ضمنت وصوله إلى الأجيال بصورة لا تحريف

عَلَيَّ، فَيُفْصِمُ عَنِّي، وَقَدْ وَعَيْتَ مَا قَالَ، وَأَخْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ"⁽⁷⁸⁾، وفيه إشارة متناهية الدقة في مدى حرصه على السماع حتى لا يزيد أو ينقص، وجعل وعيه لما يقوله الملك فاصلاً ومانعاً من كل نقيصة.

جمالية التلقي القرآني النبوي

تظهر هذه الجمالية، من خلال اجتماع العديد من الأركان، والتي عملت منذ عصر التنزيل الأول وهو العهد النبوي - على تقديم النص القرآني بأعلى مستوى من الفصاحة والبلاغة، ترك من غير مقارنة. النصوص الأدبية تستلهم منه الأساليب والتعابير، على حيرة من سامعيه، وعجب من متدوقيه، لقد عمل النص القرآني منذ العصور الأولى على احتواء هذه الجمالية ابتداءً، فقد اجتمعت له عظمت خمس أولها: عظمت مصدره وهو الله تعالى، ثم عظمت خطابه، ثم عظمت جبريل عليه السلام، ثم عظمت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عظمت هذه الأمة، التي تشرفت بهذا الكتاب وهذا النبي.

وقد عملت العديد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، على تصوير هذه الجمالية في التلقي، فحين يتحدث القرآن الكريم في آيات سورة القيامة، عن الطريقة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى بها القرآن، كانت قد اختصرت العملية جميعها في تحريك اللسان، وهي الحركة الباقية في تصرفات النبي، حتى بعد تحديد السبب في العجلة، في هذه المرحلة يتدخل الحديث النبوي لتصوير عملية تلقي الوحي، وواضح أن التنوع في حالات هذا التلقي بين صلصلة الجرس، أو أزيز النحل، أو ظهور الملك في صورة رجل، لم تؤد جميعها إلى اختلاف المدركات النبوية، فالفرق شاسع بين ظهور الملك من عدمه، والنتيجة واحدة بينهما كانت هي الوعي النبوي.

إن قراءة واعية للمرحلة النبوية التأسيسية، ستجعل من التكفل الإلهي المطلق وحيًا. ولفظًا. وجمعًا. وبيانا، والتبليغ الكامل للقرآن الكريم من طرف جبريل عليه السلام، والاستعداد التام لاستقبال الوحي من طرف النبي صلى الله عليه وسلم، على أي صورة أو حال كان فيها. سيجعل منها. أركاناً ثلاثية في استلهاها الجمالية المكونة في عملية التلقي، ولا يزال النص القرآني بعد نزول آيات سورة القيامة يُقدّم في كل مرة ما يُطمئن القارئ إلى المصدرية الإلهية، حيث انتخب أبلغ الألفاظ وأعذبها، وأفصحها في التعبير، حتى لا تكاد أسننت الناس تقف على غيرها، فإن لم تقتنع بها فلا قناعت لها غيرها، فحين يقول تعالى: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ۙ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ ۙ عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۗ ۙ﴾⁽⁷⁹⁾ لا يحتاج هذا التعبير إلا إلى أذن ذواقته ووقافته على براعة النظم، وإلى سليقة قرأت في كتب الأدب شيئاً عن السجع، حتى تجد فيه ما وجده العرب سلفاً، فكان إيمانهم من عمق القرآن ذاته.

زيادة على المذكور، فإن الآية تُقدّم تصويراً فريداً للعلاقة القائمة بين الرسولين، الملك والنبي عليهما السلام، فتكاد كتب التفسير⁽⁸⁰⁾ تجمع أن المقصود في قوله تعالى "عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۗ ۙ"،

الهوامش

- 1- سورة الكهف الآية 110
- 2- البخاري، خلق أفعال العباد، تحقيق، عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، السعودية، الرياض، ص 83
- 3- العسكري، تصحيفات المحدثين، تحقيق، محمد احمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة، ط1، 1402هـ، ج1، ص 7
- 4- سورة النمل الآية 6
- 5- أوردنا هذا الحديث على سبيل التمثيل وإلا فإن الأحاديث الواردة في هذا الصد تدكر أسماء أخرى مما تقتضي الجمع والتوفيق، وأن الحصر فيها إضائي لا حقيقي،
- 6- بن الحجاج، مسلم، الصحيح، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الفضائل، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما، الحديث رقم 118، ج4، ص 1914
- 7- البخاري، الصحيح، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: «فَإِذَا قَرَأْتَ قُرْآنًا فَذَكِّرْهُ بِالْقِيَامَةِ: 18» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {قَرَأْتَهُ} الْقِيَامَةُ: 18، «بَيِّنَاتُهُ» {فَاتَّبَعِ} الْقِيَامَةَ: 18، «اعْمَلْ بِهِ» الحديث رقم 4931، ج 6، ص 164
- 8- القارئ، عبد العزيز عبد الفتاح، سنن القراء ومناهج المجودين، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1، 1414هـ، ص 48
- 9- المجيدي عبد السلام، إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم، دار الإيمان، القاهرة، ص 106
- 10- المرجع نفسه، ص 492
- 11- المجيدي، المرجع نفسه، ص 497
- 12- الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق، طارق بن عوض الله بن محمد، دار الحرمين، القاهرة، الحديث رقم 7258، ج7، ص 197
- 13- المجيدي، إذهاب الحزن، ص 86
- 14- سورة الأحزاب، الآية 21
- 15- أبو داود، السنن، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ، 2009م، أول كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، الحديث رقم 3660، ج5، ص 501
- 16- سورة الطور الآية 34
- 17- المجيدي، إذهاب الحزن، ص 93
- 18- بن حنبل، أحمد، المسند، تحقيق، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ، 2001م الحديث 832، ج1، ص 528
- 19- الآيات محل الدراسة
- 20- سورة الجم الآيات 3- 5: «وَمَا يَطِّقُ مِنَ الْحَمْدِ إِلَّا رُحُومًا لَّوِيحٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَ شَدِيدُ الْقُوَىٰ»
- 21- سورة الحجر الآية 09: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»
- 22- سورة النمل الآية 06: «وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ السُّرَىٰ أَنْ لَدُنَّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»
- 23- البخاري، الصحيح، ط1، 1422هـ، ج6، ص 163
- 24- بن حنبل، أحمد، المسند، الحديث رقم 3191، ج5، ص 268
- 25- الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، ج11، ص 458
- 26- يتفرع عن هذه القضية الإشارات الواردة في كتب السياسة الشرعية حول التفريق بين أحوال تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم، إذ تارة تكون باعتباره نبيا. كالحظات الوحي مثلا، وأحيانا كرئيس للدولة/ عودة عبد القادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981م، ص 120/ وبالضرورة سنتعلم أن في حياته وتصرفاته ما كان باعتباره قاضيا، أو مبلغا، أو مفتيا، أو إماما أو سياسيا، أو يشرى/ ينظر، السياسة الشرعية في تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم المالية والاقتصادية، محمد محمود أبو ليل، رسالت دكتوراه، الجامعة الأردنية، 2005.
- 27- سورة القيامة الآيتين 20، 21
- 28- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت،

فيها ولا تزييف، وقد حفلت مصنفاً السير والشمايل، ومتون الحديث، وشروحه، والتفاسير، وعلوم القرآن... بالعديد من الروايات التي تبحث في التلقي النبوي، والتي تُثبت مصدريته الإلهية، وتعليماته النبوية، على الصورة المبسوطية فيها.

خاتمة

بهذا الشكل إذاً، ظهر التلقي في العهد النبوي، وظهرت آيات سورة القيامة بدلالاتها العامة والخاصة، مساهمةً بذلك بالقدر في تكوين الصورة الكاملة والشاملة، فخصوصية خطابها لم يمنع في ثناياها الأمر بالإقتداء، وقد ثبت هذا، من خلال الأحاديث النبوية التي تُشير إلى مدى تمسك الصحابة عليهم الرضوان بخطوات النبوة، القولية والفعلية، حتى إن أحدهم ليقضي آثار مشيئته صلى الله عليه وسلم، ويخشى الأخر التقصير، ويحرص شاهدهم على تبليغ غائبهم.

إن صورة التلقي في سورة القيامة وفي جميع الآيات والسور المتعلقة بالموضوع، لا تضيق بها الكتابة ذرعا، والبحث فيها وفي قضايا القرآن الكريم، إن لم يوقف إلا على متعة غير معادة لكفت، ومع ذلك فبها: "تحدد معالم شخصية أصل الإسلام الأعظم من حيث توقيف نقله، وتواتر تلقيه، وأسس ذلك توقيفاً أو اجتهاداً، ويستدعي ذلك كله مكانته، التي جعلته أعظم مركز تدارست حوله البحوث، وتتجدد في سبيل التبصير بحقائقه الدراسات"⁽⁸⁴⁾

سيكون من العدل إذاً أن تستقرّ العقول على ما يلي:

إنّ الجهد النبوي الإقرائي، كان جهد أمة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية بأكملها، فريداً في منهجه، دقيقاً في أصوله، عميقاً في غاياته.

. إن منهج الإقراء بأساليبه، وطرقه وكيفياته، كان متصلاً بالنبي عليه الصلاة والسلام، لا مجال فيه للاجتهاد البشري.

. إن الرعاية الإلهية للتلقي النبوي، لم تفارق النبي عليه الصلاة والسلام طيلة مدة الوحي، وقليل القرآن سواءً مع كثيره في هذه المسألة.

. يعتبر المنهج النبوي في التلقي القرآني سداً منيعاً في وجه من يدعي بشرية القرآن، خاصةً من المستشرقين، فأوجه معاناته، وطرق تلقيه، وأساليب تبليغه، توحى بدقة خطأ نتائجهم، ولو صحّ الادعاء لسهّل على النبي عليه الصلاة والسلام حفظه وتبليغه.

. قضايا القرآن الكريم، كما تحمل دلالات روحية وعقدية، فلها أيضاً دلالاتها الجمالية، ورغم الطبيعة الوعرة لعملية الإقراء النبوي في بداياته، فقد عبّر القرآن الكريم عليه بصورة مميزة، جمعت بين إنقاذ النبي عليه الصلاة والسلام من الحفظ الصعب، وبيّنت للأمة أيضاً منهجها في التعلم والحفظ.

- ط 3، 1407هـ، ج 4، ص 661
- 29- بن حنبل، أحمد، المصدر السابق، الحديث رقم 23482، ج 38، ص 466
- 30- سورة طه الآية 114
- 31- السمعاني، أبو المظفر، تفسير القرآن، تحقيق، ياسر بن إبراهيم وآخرون، دار الوطن، الرياض، 1418هـ، 1997م، ج 3، ص 357/ البغوي، معالم النزيل في تفسير القرآن، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج 3، ص 276
- 32- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 2000م، ج 18، ص 382
- 33- العسكري، معجم الفروق اللغوية، تحقيق، بيت الله بيئات، مؤسسة النشر الإسلامي، ط 1، 1412هـ، ص 276
- 34- سورة طه الآية 114
- 35- سورة القيامة الآية 16
- 36- سورة الإسراء الآية 11
- 37- سورة الأنبياء الآية 37
- 38- سورة النحل، الآية 1
- 39- سورة آل عمران الآية 133
- 40- سورة طه الآية 84
- 41- سورة البقرة الآية 97
- 42- سورة الشعراء الآيتين 193، 194
- 43- الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، لبنان، 1415هـ، 1995م، ج 1، ص 42
- 44- المصدر نفسه، ج 1، ص 42
- 45- بن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، 1420هـ، 2000م، ص 25
- 46- الجديع، عبد الله بن يوسف، العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، دار الإمام مالك، دار الصميعة، ط 2، 1416هـ، 1995م، ص 211
- 47- سورة العنكبوت، الآية 45
- 48- سورة القيامة الآية 18
- 49- سورة الإسراء الآية 106
- 50- سورة البقرة 121
- 51- حدد شيخ الإسلام ابن تيمية طبقات الذكر الأربعة كما يلي: الذكر بالقلب واللسان وهو المطلوب، الذكر بالقلب، الذكر باللسان، ترك الأمرين/ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، السعودية، 1416هـ، 1996م، ج 10، ص 566
- 52- ابن حبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1414هـ، 1993م، ج 3، ص 97
- 53- ابن كثير، فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، ط 1، 1416هـ، ص 235
- 54- سورة ص الآية 29
- 55- بن حنبل، أحمد، المسند، الحديث 6799، ج 11، ص 404
- 56- الأنصاري أبو محمد بن عبد الواحد بن عاشر، تنبيه الخلان بتكميل مورد الظمان، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، 1426هـ، 2005م، ص 474
- 57- وتلك طبيعة العرب، والنبي صلى الله عليه وسلم أقواهم ذاكرة، وأرزهم عقلا
- 58- المجيدي عبد السلام، تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، دراسة تأصيلية، رسالة ماجستير، جامعة القرآن الكريم، السودان، 1999، ص 124
- 59- سورة الأعلى الآيتين 7، 6
- 60- الطبري، المصدر السابق، ج 24، ص 371
- 61- الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج 10، ص 349
- 62- الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج 30، ص 728
- 63- سورة النساء الآية 80
- 64- سورة النحل الآية 44
- 65- الجوزية، ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين، ط 5، 1994-1414هـ، م، وهذه:

المصادر والمراجع

القرآن الكريم على رواية حفص

المصادر

1. الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، تحقيق، صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ.
2. الأنصاري، أبو محمد بن عبد الواحد بن عاشر، تنبيه الخلان بتكميل مورد الظمان، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع، 1426هـ، 2005م
3. بن أنس، مالك، الموطأ، تحقيق، يشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، 1412هـ.
4. البخاري، محمد بن إبراهيم، خلق أفعال العباد، تحقيق، عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، السعودية، الرياض.
5. البخاري، محمد بن إبراهيم، الصحيح، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، الحديث رقم 4931.
6. البغوي، عبد الله بن أحمد، معالم النزيل في تفسير القرآن، تحقيق، عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
7. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس، مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد، السعودية، 1416هـ، 1996م.
8. الجوزية، ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين، ط 5، 1414-1994م، هذبه: عبد المنعم صالح العلي - مؤسسة الرسالة، بيروت.
9. ابن حبان، بن أحمد أبو حاتم، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 2، 1414هـ، 1993م.
10. بن الحجاج، أبو الحسين مسلم، الصحيح، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- 11 . بن حنبل، أحمد ، المسند، تحقيق، شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ، 2001م.
- 12 . أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، ط1، 1430هـ، 2009م.
- الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، 1420هـ. 13
- 14 . الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.
- 15 . الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407هـ.
- 16 . الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، كطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3.
- 17 . السمعاني، أبو المظفر، تفسير القرآن، تحقيق، ياسر بن إبراهيم وآخرون، دار الوطن، الرياض، 1418هـ، 1997م.
- 18 . الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، لبنان، 1415هـ، 1995م.
- 19 . الطبراني، سليمان أبو القاسم، المعجم الأوسط، تحقيق، طارق بن عوض الله بن محمد، دار الحرمين، القاهرة،
- 20 . الطبراني، سليمان أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، ج11، ص 458
- 21 . الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق، أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 2000م.
- 22 . العسكري، أبو أحمد الحسن، تصحيفات المحدثين، تحقيق، محمد احمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة، ط1، 1402هـ.
- 23 . العسكري، معجم الفروق اللغوية، تحقيق، بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 1412هـ.
- 24 . ابن كثير، أبو الضا إسماعيل، فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، ط1، 1416هـ .
- 25 . ابن كثير، أبو الضا إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للتوزيع والنشر، ط2، 1420هـ، 1999م،
- 26 . ابن ماجه، أبو عبد الله محمد، السنن، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، 1430هـ، 2009.

المراجع

- 1 . أحمد مختار عبد الحميد عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، 1429هـ، 2008.
- 2 . الجديع، عبد الله بن يوسف، العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية، دار الإمام مالك، دار الصمعي، ط2، 1416هـ، 1995م.
- 3 . عودة عبد القادر، الإسلام وأوضاعنا السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1401هـ، 1981م
- 4 . القارئ، عبد العزيز عبد الفتاح ، سنن القراء ومناهج المجودين، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1، 1414هـ.
- 5 . المجيدي عبد السلام ، إذهب الحزن وشفاء الصدر السقيم، دار الإيمان، القاهرة.
- 6 . المجيدي عبد السلام، تلقي النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ القرآن الكريم، دراسة تأصيلية، رسالة ماجستير جامعة القرآن الكريم، السودان، 1999.
- 7 . بن نبي، مالك ، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، سوريا، 1420هـ، 2000م.